Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

٢ - المعيار العقلى :

من طبيعة النثر الفنى عامة أنه يعتمد على لغة العقل والتفكير خلافا للفن الشعرى الذى يعتمد على لغة الموسيقا والخيال، ومن ثم يستطيع الشعر أن يعيش مع الأمية، أو يرقى فى مراحل البداوة، ولا يستطيع النثر الفنى أن يعايش تلك المراحل. فقد كان العرب إلى ظهور الإسلام أميين فى كثرتهم. وكان الشعر عندهم - أو عند غيرهم من الشعوب - أسبق ظهورا من النثر؛ لأن الخيال يسبق التفكير فى حياة الأفراد والجماعات، فالطفل يتخيل قبل أن يفكر، ونحن نجد عند الجماعات الساذجة التى لم تتحضر بعد كلاما له وزن وقافية دون أن نجد عندها نثرا فنيا صحيحا، خليقا بالجمع والتقييد... ومن هنا بدأت الآداب القديمة كلها بالشعر، ولم يظهر فيها النثر الفنى إلا بعد أن أخذت الجماعات بحظ قليل أو كثير من الحضارة والرقى العقلى[١]. ولهذا السبب نفسه نهض فن الخطابة فى إطار الدعوة الإسلامية، وربما بلغ الذروة فى فترات الصراع الحزبى، أو الصراع الفكرى والسياسى؛ لأن المتكلم أو الخطيب - إذ ذاك - كان يحرص على إقناع المخاطبين بالرأى الذى يدعو إليه، كما كان يحرص على استمالتهم، بإثارة العواطف، وتهيئة النفوس للأخذ برأيه، والعمل بمقتضى دعوته. فلابد للخطيب من العنصرين معا :

الإقناع والاستمالة. ومن ثم يكون المعيار العقلى قسيم المعيار النفسى فى توجيه العلاقة بين الخطيب وجمهوره. وهذا يفسر لنا سبب الحرص على عنصر الإفهام فى طريقة التعامل مع النص الخطابى. وهو من العناصر الهامة التى تدل على بلاغة الخطيب أو المتكلم عند كل الشعوب. ففى ما يرويه الجاحظ قولهم فى اجتماع آلة البلاغة : «... ومدار الأمر على إفهام كل قوم بمقدار طاقتهم، والحمل عليهم على أقدار منازلهم»[٢] فمهمة الخطيب هى إفهام المخاطبين. وهذه تتطلب أن يراعى منازلهم ومراتبهم فى الفهم، وأن يخاطبهم على قدر عقولهم. وكان علماء البيان العربى يرون البلاغة فى تخير اللفظ لحسن الإفهام[٣]. ولا يكون

(١) المحمل فى تاريخ الأدب العربى ص ١٢ تأليف لجنة من كبار الأدباء والنقاد ١٩٣٢.
(٢) البيان والتبيين ١ / ٩٣ تحقيق عبد السلام هارون.
(٣) المصدر السابق ص ١ / ١١٤ .